



DECONFINING Arts, Culture, and Policies in Europe and Africa

Iva Papić

مايستنز
بتلر، مايستنز
جزينده

 Co-funded by
the European Union

TUNISIAN
NATIONAL
THEATER | المسرح
الوطني
التونسي

DECONFINING Arts, Culture, and Policies in Europe and Africa



مايستنز بتلر،
مايستنز جزينده
(جُلْهَم مَتَسُولُون،
جُلْهَم خَدَم)





هاتفك!». أطفأ الرجل هاتفه فصدح حينها صوت العجوز تسفيتكوفيتش في أرجاء المسرح.

«لن أبدأ قبل أن تطفئوا!» ترددت هذه الكلمات في أذنيّ بينما كانت ريناتا تركز السيارة أمام سياج مخيم اللاجئين الشائك. لو أنّ لي أن أردد هذه الكلمات بنفسني!

«لن أبدأ قبل أن تسمّوا الأشياء بمسمياتها، قبل أن تكفّوا عن تزيين الأمور بلطف العبارات متّخذين مصطلحات مطيئة للتلاعب بالناس ظناً بأن ذلك سيرفع الحرج أو بعضه». لكن ما يجهله المفكرون وما من شأنه أن يشرح لهم فيزياء الكمّ هو أنّ عملية وزن أي شيء تقتضي آلياً وجود شيئاً آخر مقابل له يكون غالب الأحيان غير مرغوب فيه. لكن الغرض من هذا الاختزال المصطلحي لا يقتصر على رفع الحرج، والمقصود هنا الحرج الذي يجده من يشعر بواجب يلزمه على ردّ الفعل في مواطن معاناة الغير. لكن الغرض منه أيضاً ضرب الحُجُبِ دون سائر طبقات ظاهرة الهجرة هذه. يهرع لاجئو الحر والجوع والفقر والعبودية واليأس إلى أرض الميعاد الأوروبيّة عساهم يظفرون بنصف هذه المعيشة التي نعيشها متذمّرين متباكين. إن إرادتهم في طلب النجاة أصلب من حاجياتنا المشبعة. قد يكونون فعلاً مجرد أدوات في أيدي ذي نفوذ، أو لعلّ ما يجدونه من ألم في رحلتهم يعميهم عن كون رغباتهم مجرد خيط يحرك أجسادهم كما تحرك الخيوط العرائس. لا يقبل أحد في العالم أن يذوق مرارة الألم عن طيب خاطر أو أن يكون دمية، أو أن يسعى سعياً فلا ينوبه من سعيه شيء. كلّ الظواهر البشرية الجماعية في باطنها ردّات فعل.

— تمتت بصوت خافت والسيارة متوقفة قائلة «لن أبدأ قبل أن تطفئوا!».

— مهاجرون غير نظاميون! قالت ريناتا قصد الشرح، وكأننا كنّا في حاجة إلى تفسير للموقف ونحن نقرب من مخيم اللاجئين من الشرق الأوسط في فويغودينا.

— مهاجرون غير نظاميون، أو هكذا زعموا! كرّرت قولها وهي ترمقنا بنظرات جانبية من مقعدها قبالة المقود. وكأنّ منهم النظاميين أصلاً!

— إن النظاميين هم الذين يكون مقدمهم في كنف إطار قانوني سليم وبإذن البلد المستضيف الذي فيه يكون بعد ذلك مستقرهم. جاء جواب كيكا في شيء من الحزم وعيناها الرماديتان تتفحصان الرجال الجالسين أمام خيامهم خلف السياج.

— ليسوا إذا مهاجرين، بل نازحون. أو مستعمرون. عقبت ريناتا محافظة على ذات النظرة الجانبية.

— أجل - أجابت كيكا بفتور. - من نراهم هنا هم لاجئون. - ثمّ تهتدت ساخرة وأضافت - لكن المقبول اليوم واللفظ الأنسب هو المهاجرون لما فيه من حياد وإن لم يكن الأدق. أخرجت من حقيبتها علبة سجائر ووضعت بين شفيتها سيجارة بيضاء.

— نعم. أقرت ريناتا.

لزمت الصمت متأملة المشهد خلف السياج.

قال سيتوزار تسفيتكوفيتش في مطلع عرض في الورشة ٢١٢ في بلغراد «لن أبدأ قبل أن تطفئوا!». كانت خشبة المسرح الصغيرة غارقة في ظلام دامس فيه اقتضاه المونولوج الافتتاحي الذي كان عليه أن يؤدّيه. كانت خلفي شاشة هاتف مضاءة. كرّر الممثل «لن أبدأ قبل أن تطفئوا!»، وما لبث أحد الحاضرين أن صاح منادياً «يا هذا، غادر القاعة فلن يبدأ قبل أن تطفئ»





في صدري حرقه منه. علمت أن علة لعينة تتربص بي فعقدت العزم وأقلعت عنه. زال الإدمان الجسدي عني في ثلاثة أيام، لكن المشكلة لم تكن فيه ولا في الإدمان النفسي. إذ ليسا سوى بعض العادات التي تزول عنها أهميتها متى بانت على حقيقتها. إنما المسألة أعمق من ذلك. الشهوة هي المشكلة، وما أدراك ما الشهوة. الرغبة وما أدراك ما الرغبة. تتملك الرغبة الجسد. أما الإدمان فليس سوى مخدر.

— ثم ألقى سيجارة بين شفتيه وأوقدها.

جلس رجال في مجموعات من أربعة أو خمسة أفراد على لحافات فُرشت على العشب. أوجست خيفة من قوتهم المكبلة وهم مجبرون على الانتظار قاعدين حتى خيل إلي أنهم لن أرادوا أن يأتوا أي صنيع آخر مهما كان إلا أن يبقوا على حالهم تلك.

ثم قال ضاحكا وهو يطفئ سيجارته في العشب حذو اللحاف المفترش:

— تكمن القضية على المستوى العضوي وليست وهما. إن ما يخلق الإدمان هو السم العصبي. ذلك أنه يولد شعوراً تستحسنه على زيفه، وفي المقابل يدمر أطراف أعصابك. القصة أقرب إلى حكاية حورية البحر الصغيرة التي لديها ساقان لكنها تفقد صوتها. والأمر نفسه بالنسبة لنا نحن المدمنين، فنحصل على هذه المتعة الزائلة، هذا المظهر من النشوة التي يموت جزء من جسدنا في سبيلها. ولكن المتعة الحقيقية ليست هذه النشوة الزائفة، كلاً. تكمن المتعة هي إحكام الخناق على المتعة الحقيقية، لكن المدمن لا يدرك ذلك إلا عندما ينفذ المخدر. لم أقو على ذلك شخصياً. لم أكن أرغب في السجائر حين لم أدخنها. لكن ما حصل وفاجئني بحصوله هو احساسني بالرغبة في كل شيء غير التدخين. إذ رغبت في طعام طيب، وساقين قويّتين،

— من الصعب أن يخلو المرء من العيوب. ونحن تركنا الصحة السليمة لأهلها - قالها بغمزة مشاكسة، وهو يقودنا إلى الحاوية حيث يجب علينا إيداع محتويات صندوق سيارة ريناتا. ويضيف - والسعداء من الناس

— لا تكلف ريناتا نفسها عناء المقدمات فهي تعلم جيداً أننا لن نتذكر الأسماء على أية حال. ثم إن الأسماء في هكذا حالات عديمة الفائدة. سأدعوه بـ «هو». عدنا من الحاوية إلى خيمته وجلسنا على بطانية مفروشة في الشمس؛ واطمأنت قلوبنا قليلاً حينما أبصرنا مركز الحراسة غير بعيد.

— أحضرت لك بعض السجائر، يمكنك تقديم بعضها لغيرك إن شئت. - سلمته ريناتا كيساً ورقياً.

فأخذه على الفور وأخفاه بسرعة في خيمته. لكنه لم يكن بالسرعة الكافية فقد كان الرجال الآخرون الذين هم أيضاً أعيانهم عبء هذا اليوم المضني جالسين في الشمس مثلنا، يرتجفون مثل الحيوانات التي تشم رائحة الخطر. يشعر المرء بهذه الأمور قبل أن يراها.

— لطالما وجدت الشهوات مثلها مثل الإدمان، ولكل وظيفة. حاولي التوقف عن التدخين، وسترين - همس لكيكا، التي بدأت في لف سيجارة بمجرد جلوسها.

— هو ذاك! - ردّت كيكا. - أنا من المدخنين منذ سنّ السابعة عشر.

— أما أنا ففي الثالثة عشر. ثم أرانا علبة سجائر وقال ضاحكا - هؤلاء أصدقائي العشرون المفضلون. أقلعت عن التدخين منذ ستة أشهر، فلم يكن لي مال وكانت





أتألم مثل ما جاء في قصّة حوريّة البحر الصغيرة وهما تصبوان إلى طيّ الطريق طيّاً، وأنا لا أقوى إلاّ على الدوران في حلقات. أليس الأحرى بي أن أخدرهما؟ أبلغ عذاب الرغبة بقلبك يوماً حدّ خشيتك عليه من أن يفيض أو ينفجر؟ لعلني لو كنت شاعراً كنت طلبت عذاب الرغبة هذا، ولكن له عندي معنى. لو كنت شاعراً لأمعنت في شعوري بالرغبة، فأذوق حينها عذابها متلذذاً منتشياً. بيد أنني لست شاعراً، إنما أنا رجل بسيط يرغب في الطعام وفي الرفاه وفي النساء، فإن لم أنل من هذا شيئاً فليس التخدير ساعتها بالمكروه. إن المنكر نعمة نزلت رافة بالعبد والمجذوم فكُل منها كيّلك. ثم عبس فاستطرد - بل زده كيلاً. وقد خلّصت الحكومات إلى الحلّ فزادت من الثغرات على حدودها.



ريناتا مجرية الجنسية، ولدت في باتينا. متزوجة وتعيش في أوسبيك.

قالت وهي تقودنا في سيارة الخدمة التابعة لفرقة إطفاء درايس. - كنت شقيّة مشاكسة في صغري.

كان خط سيرنا بسيطاً. يجب علينا أولاً أن نأخذ أغراضنا إلى اللاجئيين في بانات، على جانب فويبودينا، ثم نزل كيكا في نوفي ساد، ثم نعود أخيراً إلى أوسبيك، في منتصف الليل.

قالت ريناتا - كان جدي يضربني، لأنني كنت أكثر شقاوة من الصّبية. لم يجرؤوا على دخول الهيكل الموجود تحت النصب التذكاري لمعركة باتينا. أمّا أنا فلم أكتف بالمشي بين الهياكل العظمية فحسب، بل فعلت فعلتي مدركة أنّ عقابي في المنزل الصّفع على الأرداف.

حلمت أنني كنت أمر عبر الشوارع المنيرة، والنوافذ المضاءة التي تعكس رطوبة الأسفلت المغسول حديثاً، كنت أرغب في تناول الفول السوداني المملح واللوز المحلى والمشي بسلام في غيمة من الأفكار التي تسرّ البدن، أردت أن أشعر بنعومة صوف ليّن على بشرتي، أو وشاح حريري، أردت أشياء كثيرة، وصارت كل حواسي تطلب كل شيء عجزت عن منحها إياه. عصفت بي كلّ الأحلام التي حلمت بها يوماً ما عصفاً، كأنّ رغباتي الدفينة شياطين كسرت بغته أصفادها وانعتقت من صندوق باندورا.

وما لبث أن تنهد قائلاً

— رغبت في امرأة، لكن ليس أي امرأة. رغبت في لمسة امرأة تريدني. وددت أن أشعر برجفة يدها وهي تداعب صدري، أن أشعر بها وقد تفتّحت لي كما تتفتّح الزهرة لقطرات المطر. فاقت رغبتني ما كنت أجروء على تخيّلته. لم أطق على تلك الحال صبراً أكثر من أسبوعين، فما انفكت الرغبات تتراكم وأفاق من الحواس التي صرخت تتصور جوعاً في آن واحد اللّجوج الذي كان سالف منكراتي يخفته، حتّى صار جسدي كعشّ علا منه صياح فراخ الطير الجوعى. استبدّ بي شعور بالنهم والتعطش كالذي يفتح عينيه وأذنيه لأول مرة، أو كالذي يتعلم الغناء يكتشف الجنس والشراهة والجشع والعاطفة والدموع واليأس. أحسست وكأنني سأختفي تماماً في هاوية الرغبة التي لم تشبع. اتصلت بأصدقائي العشرين وبعض قوارير الجعة طلباً للعون. ثمّ أضاف ضاحكا وقد بدت أسنانه المصفرة - لكن المنكر لا يَنوم الرغبة حصراً، فما الرغبة إلاّ الوجه الآخر للألم. إن وضع أمام المرء ضعفاً الألم، أتراه يزيدهما على ما يذوقه أو ينقصهما منه؟ الجواب بيّن لا لبس فيه متى لم يكن من مرارة الألم مناص. ما نفع السّاقين إن عجزتا وهنّاً أن تعدوا بك لكيلومترات حتّى تطوي الأرض طيّاً؟ ما نفعهما إن كنت في كلّ خطوة أخطوها





القمامة؛ نادراً ما كانوا يلقون التحية علينا في المتاجر، ولم يكن غريباً عليهم أن يطردونا خوفاً من أن نسرق منهم شيئاً. لا أعرف لاجئاً مجرياً واحداً لم يعد إلى كرواتيا بعد الحرب. والآن بعد أن أصبح كل فرد «سيد منزله»، كما يقولون، فإننا نتعاون تعاوناً رائعاً. ختمت بذلك ريناتا كلامها مبتسمة في وجوهنا.

كانت، على حدّ قولها، تجربتها الخاصة لاجئة الدافع خلف انضمامها إلى وحدة الصليب الأحمر في أوسيجيك عندما علمت بأزمة المهاجرين الذين كانوا يحاولون في موجات متعاطمة الإطاحة بالأسوار التي صُربت دون أرضهم الموعودة. لكن زيارتنا لم يكن لها أي علاقة بنشاطها التطوعي، فالأشياء التي لم يكن لها مكان في شاحنة الصليب الأحمر، وخاصة السجائر والكحول. كان نقلها إلى مخيمات اللاجئين مهمة أخذتها ريناتا على عاتقها واصطحبتنا معها هذه المرة. عادت كيكا إلى فويفودينا ورافقتها أنا متتبّعاً الخيط المشترك لبحثنا المشترك، تاريخ نهر الدانوب ومستنقعاته وتلال بانسكو بردو. غرق العديد من الضحايا في نهر الدانوب. تحدثت ريناتا باللغة المجرية عبر الهاتف أثناء القيادة.



حدّثنا بعد شرب علبتين من الجعة أخرجتهما ريناتا من حقيبة ظهرها قائلاً - كنت أعزف على الكلارينت في طفولتي. كان علي ذات مرّة وأنا في الثانية عشرة من عمري أن أوّدي عرضاً مفتوحاً للجمهور، وسألتنني والدي إن كنت أريدها أن تحضره وتستمع إلي أم لا. أحببتها بأنه « لا فرق عندي»، لكنني كنت أكذب. لم أكن في الحقيقة أرغب في إزعاجها لأنها كانت ساعتها قد عادت لتوها إلى المنزل من العمل، وكانت تعمل في وظيفتين في ذلك الوقت. وكان عصر ذلك اليوم، يوم عرضي الموسيقي، الوحيد الذي لها أن تستريح فيه في

وضحكت دون أي خجل أو تكلف، كما لو أننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن. كانت ضحكتها تلك معدية، فانفجرنا بدورنا ضاحكين معها.

« لم أقابل قط شخصاً واضحاً وموثوقاً إلى هذه الدرجة في حياتي». هكذا وصفت لي كيكا ريناتا بينما كنا نتجهز للمغادرة، ولا يسعني إلا أن أوافقها الرأي. كانت ذكورية البنيان ممتلئة الجذع رفيعة الأطراف، أطلقت شعرها حتى تربطه على شكل ذيل حصان. على الرغم من أنها عاشت في أوسيجيك، إلا أنها لا تقوى، مثل كيكا، فراقاً على سحر تلال بانسكو بردو، وتعمل في دراي في فرقة الإطفاء مسؤولة عن أمن المستودعات الصناعية.

قالت ونحن نغادر أوسيجيك وبارانيا - لأن أقطع مسافة الرحلة كل يوم خير عندي من البقاء بالقرب من نهر الدانوب. سارت السيارة نحو إردوت في طريق أرجواني بين الأماكن الخضراء مع الطحالب التي تنتشر في رطوبة المستنقع حتى على الأسفلت. - قلت لزوجي: أرضى بالعيش معك في أوسيجيك، لكن لا تطلب مني يوماً أن أدعوها مدينتي.

غادرا خلال الحرب إلى المجر، وانخفض عدد سكان قريتها باتينا إلى أقل من ١٠٠٠ نسمة وبقي على حاله. كانت ريناتا تكره كونها لاجئة، لأنه على الرغم من أنها مجرية وتتحدث اللغة المجرية، إلا أن الترحيب اختفى سريعاً كما الحلويات من مائدة الوجبات الخفيفة. - ألحقنا في المدرسة بأقسام مختلفة. فرغم أنني كنت أتكلّم اللغة المجرية، إلا أنني كنت في قسم كرواتي اللسان، كرواتي المدرسين والمناهج المدرسية. في البداية، رحبوا بنا بأذرع مفتوحة، ولكن مع مرور الوقت، صار جلياً مع الوقت أننا كنّا بمنزلة العالة، وإن لم يكن لنا في الأمر ذنب. ما يقوله الكبار في حديثهم، يأتيه الصغار في صنيعهم، فسرعان ما بدأ الأطفال في سننا يتربصون بنا في طريقنا إلى المدرسة ويرمون علينا الأوساخ أو

IV





حقيقة الأمر تريدني أن أحضر، لكنك لا تريد أن تكون أنايتا؟ « انحنى فوقى ودغدغت إبطينى بلطف. «ربما قليلاً...»، أتذكر أنني بالكاد استطعت الردّ لأنني كنت أضحك كثيراً. وبختني بلطف قائلة: «لا تخفي عني رغباتك!» «، ثم عانقتني ووعدتني بالحضور - ثم أنهى ما في العلبه وألقاها في خيمته.

— كان ذلك آخر عهدي بتلك الاختبارات. أخبروني في العام الموالي أن الكلارينت آلة يهودية فتوقفت عن العزف عليها. هل تتخيل؟ حتى الآلات لها عرق؟ - قالها ضاربا كفّاً بكفٍّ ومرّر لسانه على شفّتيه ومسحهما بظهر كفه.

— كانت الخطة أن أكون أول المغادرين ثم أَدفع الأجرة عن أخواتي. وحتىّ أصدقك القول، أُمي سعيدة أينما كان طالما أنها قريبة ممن تحبهم. فهِمّت أن أُلذ الخبز أقربه من القلب منزلة وليس ما كان الأجل شكلًا، لكن هذا ما لم آخذه عنها. إنيّ على حبّي الشديد لأُمي أكره الخبز الذي تخبزه. ولئن أُعدت إلى هناك، لازدّدت له كرها على ما كنت عليه يوم رَحَلْتُ. لقد استدرجوني بالحلم. كنت أشم رائحة الخبز الألماني منذ سنوات لكنني لم أذقه قط. إن هذا الحلم هو ما يكسب منه المهريون أموالهم، أكثر مما يجنون من بؤسنا. كانت والدتي تعلم جيّدًا أن كل سيد لديه عصا، لكنني كنت أثق في الغير.

كانت كيكا من بانسكو بردو. لقد غادرت عندما بدأت الحرب، مثل ريناتا. عندما سقطت بارانيا، آوى والدها الأسرة عند أقارب لها في نوفي ساد، وبما أنه لم يكن لديهم مكان يعودون إليه فقد التحقت كيكا بالمدرسة الثانوية والجامعة هناك.

— بقيت أُمي في بوبوفاك - أتذكر الآن أن الأم هو الاسم الذي أطلقته على جدتها؛ كانت تدعو والدتها الحقيقية ماما.

الأسبوع. رمشت عيناه في الشمس التي كانت تخترق السحب الرمادية ظُهرًا.

ثمّ أضاف - أذكر أنني عزفت مقطوعة صعبة مليئة بالنغمات السادسة عشرة. كان محدّثًا يعشق الحديث ويتقنه. زادته صراحته التي حفّزتها الجعّة إثارة للاهتمام في نظري. كدت أن أطلب من ريناتا أن تعطيني واحدة من علب الجعّة، لكنني أيقنت أن هذه العلبه الأخرى كانت له أيضًا.

— كانت تلك السنة هي المرة الأولى التي أعزف فيها النوتة السادسة عشرة بكثافة وقد ضايقتني فأحسستها كالسلاسل على يدي، لأن أصابعي لم تطاوعني كما أردت. لقد كذبت على والدتي وتظاهرت بأنني لا أهتم إذا جاءت للاستماع إلي أم لا، مضيفا أنها سبق وحضرت العديد من اختبارات الأداء التي أجريتها فلا ضير إن فاتتها واحدة. أتذكر الآن! كنت أعزف «كلارينت إكسبرس». كان عنوان هذه القطعة لأندرية جان ديرفو. من الطريف أنني أتذكر ديرفو: لم أعزف مقطوعة أخرى له، لا بعد ذلك ولا قبلها. لو كنت سئلتُ عن هذا لقلت إنني نسيتته تمامًا... ثمّ تجمد برهة محدّقا في حزن إلى نقطة مظلمة في ذاكرته كما يحدّق المرء في الظل.

— لذلك كرّرت لأُمي أنني لا أهتم إذا حضرت العرض أم لا، وقفت في منتصف المطبخ المطل على غرفة المعيشة وقبضتها على حزامها وفوط الصحون تتدلى من إحدى يديها على طول رجلها ناظرة إلي نظرة استفهام لبضع ثوان ثمّ سألتني «أأنت جاد؟» فأجبت أريد دفع كل شكّ «وهل ستشعرين بالإهانة الآن إذا أخبرتك أنني لا أهتم سواء حضرت أم لا؟» فأجابت بهدوء «طبعًا!». ثم اقتربت بخطوات بطيئة «أترى...» وشرعت تقول آتية من المطبخ «أتراك تدّعي ذلك حتّى تزعجني؟» وسكتت وهي تجلس على الأريكة بجانبني. «أتراك في





— ثم ماتت أمي وأبت ماما أن تغادر بوبوفاك. تنقلنا من مكان لآخر ثم استقرّ بها المقام عند سفح بانسكو برودو حتى النهاية. أظنّ أنني كنت سأعود أيضا لو لم نقم بنع المنزل بعد وفاتها. هذا وارد الآن.



— لم أرى في حياتي غابات كهذه! قالها وقد بدت عليه علامات الثمالة فاتحا ذراعيه وضاحكا ملء شذقيه.

— يخرج من الغابات هنا الماء، إذ تنبع من الأشجار برّك ضخمة ممتدة على عشرات الأمتار المربعة وبعض البرّك أكبر. ولولا علمي أن مستوى الماء هناك بالكاد يصل إلى الركبة لحسبت أنّ هذه البرك بحيرات. التربة مختلفة هنا. تغوص القدم فيها غوصها في الرمل، لكن الرمل يتساقط عن الأرجل فور رفعها بينما تلتصق التربة هنا بالحذاء فيخيّل للمرء من ثقل وزنها أن أثقالا علّقت في رجليه. أوراق الشجر المتنوعة هذه التي تنتهد لمراها لطيفة فقط في المدينة على الأسفلت. أمّا في الغابة فهي أشبه بالعجين، إذا ما التصقت بأسفل القدم ألصقت قدميك أرضا حتى تكاد تعجز أن تخطو خطوة أخرى دون الغوص في طبقة أخرى من وحل المستنقع بكل ثقله. غاباتكم هذه استكشفتها العام الماضي، وهيئات أن أعيد الكرّة! - آلت شمس هذا العصر إلى المغيب وهبّت ريح بعثرت أوراق الخريف على أرض المخيم.

— حاولنا عبور نهر الدانوب باتجاه كتلة فروسكا غورا. لا توجد قرى كثيرة واعتقدنا أنه لن يكون هناك أي شرطة حدود أيضا. كانت لدينا بوصلة وكنا دائماً نتجه غرباً. الغرب مباشرة. ثم أضاف مشيرا بسبّابته - رحبت بنا بعدها غابات فروسكا غورا، إذ ندرت فيها الحيوانات الخطرة وبدا لنا أننا في أمان. كان هدفنا هو عبور الكتلة الصخرية ثم غابة بوسوت والدخول إلى أوروبا عبر غابة سباتشفا، وكان ذلك هدفنا. تعرفون الأغنية:

— لو تعلم كم مرة مررت بهذا الطريق... - قالت كيكنا ونحن نعبر الحدود في إردوت-بوغوييفو. وكانت الطريق مزدحمة لأن موظفي الجمارك قاموا بتفتيش كل مركبة تفتيشا دقيقا بسبب المهاجرين. كانوا من قبل إذا رأوا ثلاث نساء في السيارة يسمحون لهن بالمرور ملوّحين بأيديهم.

— كنا نذهب كلّ نهاية أسبوع تقريبا لرؤية والدتي في بوبوفاك، وفي مساء الأحد كنا نعود إلى نوفي ساد - قالت كيكنا مستحضرة ذكرياتها. - كانت الحدود كانت مفتوحة، بل لم تكن هذه الحدود موجودة في ذلك الوقت... كُنّا نعبر نهر الدانوب ببساطة، من ليلة إلى أخرى. لطالما مررنا بنهر الدانوب.

— هل ترى هذه الأخاديد على الأسفلت؟ - سألتنا كيكنا بعد أن عبرنا الحدود أخيرا. - هذه آثار الدبابات... مرت مئات الدبابات على هذا الطريق وما زال مثلها عددا متمركزة على الحدود. لقد كرهت هذه الحدود ختمت كلامها وريناتا تقود سيارتها بجوار حقول الذرة المحصودة حديثاً والهياكل الخرسانية للمصانع المهجورة ذات لون رمادي لامس السماء الضبابية في هذا العصر الخريفي.

— مرضت أمي بعد ذلك، فعادت ماما إلى بوبوفاك. لذا كنت أعبرها كلّ نهاية أسبوع، هذه الحدود التي لم تعد حدوداً... قبل أن تمرض أمي، كان بإمكانني التنصّل من وقت لآخر والبقاء في الشقة، لكن منذ اللحظة التي عادت فيها ماما إلى بوبوفاك أصبح التخلف عن عطلة نهاية الأسبوع جرّما لا يغتفر. لم تتزحزح الدبابات من مكانها. قالت وهي على ذات الحال، عيناها الرماديتان تحدّقان في الشمس التي شرعت أشعتها في النفاذ عبر السحب الكثيفة قليلا.





ربما كان علينا أن ننتظر، لكنني كنت أخشى الشتاء أشد من خشيتي عفاريت الجنّ. ظننت أن الغطاء النباتي سيحمينا ولو قليلاً، على الأقل الوريقات التي لم تسقط بعد. فمتى حلّ الشتاء عرّى كل شيء تماماً، فترى الأرض عارية كامرأة تجرّدت من ثيابها. حينها فقط تنجلي الحقائق وترى في آن واحد جمال صورتها وقبحها. خلاصة القول أنّها أمطرت أياماً كاملة وغشيتنا المياه أياماً كاملة. لم يعد هناك أي معنى للاختباء تحت الأشجار إذ كانت هطول المطر هناك كهطولها في غير موضع والأرض المرتوية من تحتنا تفيض ماء، ويتدفق من الأرض المبللة، وكأن كل شيء اكتفى من المطر فردّ ما فاض منها عن حاجته. ولمن يرده؟ لقد كنا نحن وأحذيتنا وسراويلنا في حالة يرثى لها بالفعل بسبب المطر والرطوبة، فنظرت إلى الأشجار متسائلاً في نفسي: كم يمكنك أن تبتلعي قبل أن يصيبك العفن؟ كانت جذور بعض الأشجار في الماء كنسوة نزلن نهراً، لكنها لم تمدد عروقها بل كان لحاء جذوعها أكثر قتامة قليلاً، بيد أنّها كانت راسخة كما لو كانت على جبل. أذكر أنني، لم أفقه كيف لكل شيء أن يتعفن باستمرار، ولكن لا شيء يموت؟! أي حياة هذه التي تتغذى دائماً على قيئها؟ وهنا حتى الموت يصير عابراً... تموت فتبعث من جديد! رأيت أشجاراً، تخيل قطعة من الخشب الفاسد، فاسدة مثل تفاحة فاسدة - تتساقط إلى قطع إذا لمستها - ومن مثل هذا الجذع الذي كسره البرق وتحول إلى بقايا جذع تنمو ثلاث أشجار صغيرة. قال لي الحارس: «هذه بناته». أشجار الصفصاف، والتي أنا متأكد أنّك تعرفينها. تخادع أشجار الصفصاف الموت. ثم، وبعد أن تعودت أخيراً على إيقاع المطر المنتظم، تغير شيء ما. ظل الإيقاع على حاله، لكن ضابط الإيقاع عمد إلى التفاصيل فغيّرها فصارت قطرات بحجم إبهامي تنهمر علينا حتى أنها كانت تلسعني قليلاً عند سقوطها على رأسي. ثم جاء الضباب، ولم يعد بإمكاننا الرؤية على بعد متر واحد. مستنقعاتكم غدارة، إذ كنّا نقع مرارا في ثقوب من جذوع فاسدة أو

في كرواتيا، يمكنك الحصول على اللجوء. ما عليك سوى النفاذ إلى كرواتيا! - قالها ضاحكا وضحكته تشي بهرارة، وأومات ريناتا برأسها إيماء المتعاطف.

واصل حديثه فاتحا علبة جعة أخرى فقال - كنّا في فصل الخريف كحالنا الساعة. كانت السماء تمطر. لم يثبط المطر عزمي من قبل. ولكنها هنا تمطر لعدة أيام. أياما تلو أيام. وحال كل يوم كحال سابقه. ظللت أرقب المطر فكان صوتها يشدّد أحيانا فظننت أنها ستزداد غزارة أيضاً وأن ماء السماء سينهمر حتى تنتهي المطر ويتوقّف هطولها. لكن هيهات، فما كان ذلك إلا بفعل الرياح إذ تهتّز لهبوبها الأغصان اهتزازا فتنفذ الماء عنها نفضا. تهطل الأمطار هنا بضمير حي وبلا هوادة، كما لو كان في السماء ضابط إيقاع في غاية المهارة يمكنه ضبط ذات الإيقاع لأيام متتالية. تشرق الشمس ويزغ القمر ويوليان، ثم تفيض الأرض المرتوية بمائها، وتفيض الأنهار بمياهها. ثم ماذا؟ لا شيء. تنقر السماء نفس الإيقاع في عناد، فلا تُخطئ إيقاعا ولا وترا. تساقطت الأمطار أياما ومعها الأوراق الميتة التي ما لبثت الرياح أن حملتها بعيداً في زوابع قصيرة تجلدنا بها جلد السّياط، وكذلك فعلت المياه. كنا أنفارا ثلاثة، ولم نشأ هذه المرة أن ندفع لشخص ما ليأخذنا عبر الحدود. هي أيضا لعبة حظ. لقد درسنا المخططات والممرات والخرائط الموجودة على الإنترنت دراسة معمّقة. ظننا أن المسار الذي اخترناه كان برّيا موحشا وأنه باتباع البوصلة وبمساعدة نظام الملاحة الجغرافية، سنصل عاجلاً أم آجلاً إلى نهر الدانوب. أو كذلك ظننا. لكننا لم نكن كفؤاً لغاباتكم. كنّا في شهر نوفمبر وكنا نمزق سراويلنا في الأجمة. أصدقكم القول! وصل نبات الأدغال في ذلك الصيف إلى ارتفاع الفخذ، ولم يتبق من الشجيرات بعد تساقط أوراقها التي جردها الشتاء سوى أغصان عارية تشير إلى الهواء أشبه بشواهد قبورنا. حسبت أن الشجيرات الميتة ستكون أكثر ليونة... وما ظننت الشتاء يغلبها في نهاية المطاف فيطرحها أرضا.





لقد خضت غمار هذه الرحلة بدافع البحث في استعمار سلافونيا الشرقية وبارانيا وفويفودينا الحالية بعد رحيل العثمانيين.

ظلّ صدى صوت تسفيتكوفيتش يتردد في رأسي. «لن أبدأ حتى تطفئوا!»

«لن أبدأ حتى تطفئوا!» لو أنّ لي على الأقل أن أفرض شروطي على الآخرين.

بدأت الموجات الاستعمارية، أو بالأحرى الهجرات القانونية بالتعبير المقبول في زمننا هذا، بعد طرد الأتراك. وكانت بانات أول نقطة ساخنة. إذ ارتأى الإمبراطور تشارلز السادس حاجة ملحة إلى توطين السكان الألمان فيها، وفي المنطقة التي تم تشكيل مخيمات اللاجئين فيها بالتحديد، والتي ما انفكت تدنو إلى هورجوس. «أترك شوابيا». كانت هذه التسمية التي أطلقت على الألمان الذين وطنهم ولي عهد المجر على أراضيه في بارانيا، وقد هجرها بعضهم بعد ذلك إلى بانات. إلا أنّ الاستعمار الحقيقي بدأ في عام ٢١٧١، عندما بدأ إرسال هؤلاء المساكين إلى «قبر الألمان»، كما أسمت الصحف الألمانية مناطق بارانيا وباتشكا وخاصة بانات في ذلك الوقت، «meistens Gesinde, meistens Bettler». أي: جلهم متسولون، جلهم خدم.

«لن أبدأ حتى نتوقف عن كسوة الفقر بلباس الفرصة!».

كان سبب وصول هؤلاء المشردين والسكرارى وطرائد المشانق الذين أطلق عليهم «حثة الإمارات الألمانية» سياسياً بلا شك. إذ كان الإمبراطور تشارلز السادس بحاجة إلى سكان ألمان يحولون بين الرومانيين

لا أدري ماذا، مغطاة بطبقة رقيقة من الأرض والأوراق. فكنا نقع في ما يشبه الخنادق وأذرع الأنهار الجافة الميتة والقنوات المهجورة وبرك من الطين نخوض فيها حتى ركبنا، ترتفع أحياناً، وتنخفض أحياناً، إلا أن كل الأرض بدت للنّاظر مسطحة. تتساءل في اللحظة التي تسقط فيها كيف من الممكن أن تسقط من سهل إلى سهل، وأن تصعد من سهل إلى سهل. ما لقينا في طريقنا تلك بشرا سوى مرة واحدة فقط. أوشك قوتنا على النفاد فاقتربنا من إحدى القرى لسرقة دجاجة. حل الليل وسرنا في الحرث كما يعصر العنب. أردنا الوصول إلى البستان المجاور في أسرع وقت ممكن. لكنه لم يكن بستاناً، بل كانت غابة من أشجار التنوب الصغيرة المُعدّة للقطع بعد بضعة أشهر لتباع أشجارا لعيد الميلاد. خضنا إذن في حرث آخر، حتى وصلنا إلى الغابة التي، أو ما حُيّل لنا من بعيد أنه غابة، تفصل هذا الحقل عن القرية فكنا نرى من مكاننا أسطح المنازل. لكن تبيّن أنها تجمّع مساكن عُطل. وبدلاً من أن نجد الطعام وجدنا رجلين، أحدهما يمشي وعلى كتفه آلة والآخر يحمل مجرفة يحفر في الأماكن التي يشير إليها صاحبه. اعتقدنا في البداية أنهم من الشرطة فبدأنا بالركض عبر الحقول متيقنين أنهم ملحونا. لقد خاب سعيانا. كنا جائعين والغابة تعجّ بالفطر خريفاً. حسبنا فطر الشيطان فطر بورسيني. أمّا الرجلان من المنطقة السكنية، وكانا منقبين عن المعادن مفلسين مثلنا، فقد أبلغا الشرطة عنا، وهذا ما أنقذ حياتنا. أشك في أننا كنا سننجو من تلك الليلة الممطرة في الغابة لو لم نجدنا. ضحكت الممرضات في استقبال الطوارئ بالمستشفى قائلات «هل خدعكم فطر البوليطس؟». أجبت وبالكاد في رمق: «حسبناه فطر بورسيني». ضحكن علينا ضحكا بريئاً «ها ها ها ها». لم نسمّه فطر البوليطس الشيطاني عبثاً! هاهاهاها! ».





فقام المستشار القانوني «إيجناك كمب» (Ignac Kemp) بالترويج بصورة جميلة من الأكاذيب تعد المستعمرين بالمساكن والأراضي والمواشي والبذور، وحتى الإعفاء من الضرائب وعشور الحرب لست سنوات (إذ كان لا بدّ أولاً، وهو ما نسينا الإشارة إليه، من تجفيف المستنقعات). لم يكن الجميع مقتنعين، ولولا الحرب والمجاعة لكان من الضروري هذه المرة مرة أخرى جمع المشردين والأسرى وزرعهم في بانات كما تجمع البذور الفاسدة. باءت هذه الجهود كسابقاتها بالفشل، فلم يصبح قبر الألمان أحلى بأي حال من الأحوال. ويبدو أن توافد المستوطنين الجدد كان لتمهيد الطرق عبر المستنقعات بحثهم حتى تُنقل الأسلحة والمؤن بأمان لشنّ هجمات جديدة ضد الإمبراطورية العثمانية. أتراهم كانوا يعلمون أن ذلك فقط كان مغزى حياتهم؟

«لن أبدأ حتى تُسمّى الأشياء بمسمّياتها».

كلّ الاستعمار في نهاية المطاف بالنجاح. إذ جُفّفت مستنقعات برانجا وبنات بعد جهود وتضحيات جسيمة، وكشفت الأرض أخيراً خصوبتها كمنجم ذهب للمستعمرين، وسمّيت القنوات بأسماء أباطرة سلالة النمسا الحاكمة وأرشيديوقاتها. تأسست الجمعية الثقافية الشوابية الألمانية (Schwäbisch-deutscher Kulturbund)، في عشرينيات القرن العشرين في نوفي ساد في قلب مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين. وعلى الرغم من حقيقة أن حياة أسلافهم نثرت هناك هباء كما تلقى البذور في المستنقعات القذرة، لم يكن هناك وطنيون أشدّ تعصباً أو نازيون أكثر جنوناً من الفولكس دويتشه اليوغوسلاف، وهي نفس الفئة التي كانت تدعى أتراك شوابيا.

والهنغارين والصرب من أجل ترسيخ القيم الألمانية والولاء للإمبراطورية في جميع المناطق التي تم غزوها حديثاً، ولكسر لُحمة كل هذه المجتمعات الثلاثة ومنعها من تشكيل اتحاد محتمل. ولكن «حنالة الإمارات الألمانية» هذه تساقطت كالذباب في مستنقعات بارانيا وبنات فتكا بالملايا والتيفوس والدوسنتاريا والطاعون إثر المعارك ضد الأتراك الذين كانوا يظهرن مرة أخرى كل عامين أو ثلاثة أعوام. سرق الرومانيون والصرب مواشيهم، حتى أُطلق من كثرة موتاهم اسم على مرض المستوطنين الألمان: «موربوس هنغاريكوس». لم تكن لهم مياه للشرب (واستغرق الأمر أجيال عدة من الوفيات قبل أن الإمام بمفهوم المياه الجوفية والعمق المطلوب للآبار التي يجب حفرها)، ولم تكن الأرض سخية إذ لم يكن للمستنقعات أن تجفّ في عام، فانتشر العفن والأمراض في الأكواخ الباردة المنتصبة عشوائياً بالقرب من بعضها البعض مثل الخيام في مخيمات اللاجئين، والتي اشتعلت في أسقفها النيران مرارا وبشكل عفوي على ما يبدو، في نسق أسرع بكثير من نسق الولادات. زد على ذلك ندرة الأطباء، ففتك بهم المرض والجوع. ولتجنب هروب المستوطنين الألمان المتكرر المتصاعد عيّننا الهيدوك أو بالأحرى ناشيونال هايدوكن، وبعبارة أخرى أولئك الذين ثاروا ضد الأتراك قبل حوالي عشرين عاماً. الخلاصة أنّ الهجرات القانونية أدت إلى زوال «حنالة الإمارات الألمانية»، وكان الهايدوك النمساويون هم الذين منعوهم من الفرار من الموت، وبالتالي من الهجرة غير الشرعية. وكان تهديد أحدهم بالتهجير إلى بانات كتوعده بحبل المشنقة.

دفع ارتفاع معدل الوفيات والسمعة السيئة التي اكتسبتها ممارسة الهجرات القانونية في بانات، ابنة شارل السادس الأرشيديوقة ماري تيريز إلى اللجوء إلى الدعاية للموجة الثانية من الاستيطان التي بدأتها، لإضفاء مضمون على فكرة طيبة عن الـ«جيسامتمونارشي» (Gesamtmonarchie) أو الملكية النمساوية المطلقة.





وقال ناظرا إلى نظرة مسمومة - أنا لا أدين لأحد بشيء،
وأشك أنني سأستردّ ديوني يوماً ما.



همس قائلاً - بالطبع هناك خلايا، يا له من سؤال!
- ابتسمي فأنت محظوظة لوجودك مع ريناتا، وإلا
فلن تعيشي طويلاً هنا... ثمّ أحجم صامتاً إذ أمسكت
ريناتا بذراعه.

عادت كيكا معنا إلى نوفي ساد، لكنها لم تكن هناك
فقط لإجراء مقارنة عرقية بين مستنقعات سلافونيا
وفويفودينا. فلم تكن أبداً على تلك الدرجة من
التصميم. إنّما عادت إلى بارانيا للبحث عن منزل في
بانسكو بردو إلى جانب اهتماماتها المهنية. كانت
تخطط سنوات عديدة للهروب من نوفي ساد لتعيش
حياة شاعرية في مكان ما عند سفح جبل مونس
أوريوس، لكن خططها لم تتجاوز حدود المخيلة يوماً.

— آسفة. - كنت صادقة على سجيّتي، ولم تكن هذه أوّل
مرّة أتفاعل فيها مع المواقف المحرجة أو الصعبة عبر
طرح أسئلة غبية كما لو كنت سأريح نفسي من وزر
بالتفكير بغباء كالنعامة الذي يثقل كاهلي: إن كنت
غبيّة، فكلّهم أغبياء مثلي وكل شيء غبي!

في خضم استكشاف الينابيع والكنائس الصغيرة
والدروب العميقة وأقبية النبيذ والصخور المتساقطة
في نهر الدانوب الذي ظلّ قرونا يلحق تلال بانسكو
بردو كما يلحق اللسان المثلجات، زرت معها عدة منازل
للبيع: مسكنا شوايباً قديماً مع شرفة وبئر وشجرة جوز
في وسط الفناء في Kneževi Vinogradi. نزل صيد
قديم عند مصب نهر كاراسيكا ونهر الدانوب؛ وكان
بيت خرباً من الطين والقصب، منزل قديم من قطعة
خبز يتحدى نهر الدانوب من أعلى بانسكو بردو غزت
فناهه أغصان شجرة مقلوبة كالأخطبوط. وكان لكلّ
منها سحرها الخاص، ولكن في كل مرة كانت كيكا
تسأل نفسها «ماذا سأفعل بها؟». لقد أثنتها وحدثها
في نهاية المطاف عن تحقيق حلمها. وكان القيام بشيء
خاص لذاتها لا يكفيها سبباً لتمضي في ما نَوَتْ فعله.
إن كان الأمر من أجل الأسرة أو الأطفال أو قضية
أو هدف، نصح حينها قادرين على تحريك الجبال.
ولكننا متى اختلينا بأفكارنا، وجدنا في كل مشروع
عيوباً كتقوب الجبن السويسري الكثيرة. ولظننا حينها
أن هذا المشروع حتّى وإن نجح نجاحاً باهراً، فلن نجد
السعادة الخالصة الموحدة المطلقة التي نسعى إليها
والتي نحن مستعدون في سبيلها لتقديم الكثير من
التضحيات، الكفيلة برسم الضحكة على الوجه متى

— يأتي الذين ضمنوا اللجوء لطلبنا في المخيم، ونحن نميز
من يجب علينا الاتصال به للقيام بأعمال معينة ومن
يتعين علينا القيام بهذه الأعمال من أجله. إذا أثبت
شخص ما نفسه، فسيكون لديه فرصة أفضل لعبور نهر
تيسا إلى جانب هورجوس قريباً. إذا التقط ما يكفي
من الطرود في تيسا بمهارة كافية...

قالها ساخرا دون أدنى ندم.

— إنّ الجريمة انتقام. لا يدّعي النّدم على الانتقام إلّا
كاذب. ثمّ عض على شفته السفلية وقد بانت عليه
علامات السكر جليّة.

قال فاتحاً ذراعيه - الى متى؟ لا شيء فوق، ولا شيء
تحت! والحفرة تزداد عمقا... - وأشاح برأسه بعيداً عني
وكأنها اشمئز من النّظر إليّ، بيد أنني علمت أنني لم أكن
سوى غيظ من فيض الأشياء التي أصابته بالاشمئزاز.

قال ساخرا - أنت طريفة...؛ لقد فقدت هويتي في عينيه،
لأصبح رمزاً بسيطاً. - أتظنّين إغراق الشيء في السكر
يحلّي مرارته؟ ها ها ها ها! ثم ضحك متباهياً مزدرياً.





وينفثون النار ويذيبون بلاستيك الأقنعة الشمعية التي يحبونها كثيراً... أنا أكره. أنا غاضبة وأكره.

وضعت السبابة والوسطى من يدها اليمنى أمام شفيتها وأنفها، وأسندت ذقنها على راحة يدها. تأملت من النافذة السهل اللامتناهي لمستنقعات بانات الجافة التي تشرح النفس لمرآها انشراحها لمراى البحر.

— في مثل تلك اللحظات كنت أطلب السجارة، اللحظات التي كنت فيها خائفة من غضبي ومسرورة بها سرور الشيطان. تخنق السجارة كل ما في دخانها فينفجر كل ما يضيق به صدري. إنها بمنزلة مصاصتي. مهدئتي. بفضلها يمكنني أن أرتقي مرة أخرى بين نظرائي. لهذا السبب لم أتمسك. كلما أشعلت سيجارة تمالكت أعصابي، فأشعر حينها أنني بخير لأنه من الواضح أنني لا أعرف كيف أتحمل نفسي. — توقفت للحظات تبحث عن شيء ما في حقيبتها، كعادة النساء دائماً متى غالبن دموعهن. صمتنا أنا ورييناتا وتركانها تتحدث. كان الليل قد حل في الخارج ولمعت أشعة الشمس الأرجوانية على الحقول في الأفق. كان الغسق دافئاً في السيارة دفء الحزن الحنون.

— سألتني كيكا بلهجة إستفزازية دون أن تنظر إليّ كما لو كانت تلومني على غبائي الذي يطيل أمليها - ما الذي تعتقدينه؟ لم بحث عن المنزل المثالي في سفح بانسكو برادو لسنوات؟ أعلم مسبقاً أنني لن أشتريها، لكنني ما زلت أمني النفس بملء هذه البئر التي تصدعت منذ فترة طويلة وجففت في أعماقي متى وجدت المنزل المثالي. تلك بئر أفرغت فيها الكثير وتسرب منها كل ما أفرغته. لقد نضبت مياهي الجوفية يوم غادرنا. لقد جفت أرضنا وآبارنا. يحزّ في نفسي فراق شيء ما، شيء أسميه من صرخاتي في أعماقي، لكن لا يمكن لشيء غير الألم أن يطفئه. ما دمت لا أضرب نفسي فإن البئر في داخلي تزداد أنينا وطمعا وتوسّلا ونحيباً، وليس

أوينا إلى الفراش آخر اليوم. يبدو أنه لن يخرج دون «هدف بالغ الأهمية» أحد من قوقعته.

— قالت كيكا ونحن نغادر بانات باتجاه نوفي ساد - لدي مشكلة. أحمل في صدري الكراهية.

ثم صمتت. لكننا عرفنا أن صمتها لم يكن سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة، فأحياناً يستحيل من شدة ضباب الخريف قول شيء سوى الاعتراف. الكراهية كلمة ثقيلة الوزن متشعبة المعاني.

قالت لريناتا - أعني تماماً ما قاله صديقك حينما تحدث عن الإدمان. أنا أيضاً نجحت منذ عامين في الاقلاع عن التدخين نجاحاً لا يتجاوز نجاحه بكثير. لم أصمد أكثر من بضعة أسابيع. ليس لأنني كنت في أزمة، فلقد صدق إذ لم أكن بحاجة إلى سيجارة لتهدئة جسدي. لا. يثير غضبي أن السجارة تريحني. أينما ذهبت ومع من تحدثت وخاصة وسط المجموعات، نظرت إلى هؤلاء الأشخاص وتحدثت معهم، ولكن عوض أن أنظر إلى وجوههم وأنصت إلى كلامهم، ما رأيت وما سمعت سوى غضبي يستشيط ويفيض عميقاً بداخلي. يشبه بعضهم بعضاً فهم قانعون بالقليل ومستعدون أن يأتوا على الأخضر واليابس مقابل النزر اليسير، ويتظاهرون بالتواضع ولا يعرفون حتى مدى استعدادهم لتلطّيح أيديهم بالدماء إذا ما استفزوا أو تحدّاهم أحد، كل ذلك بابتساماتهم المصطنعة التي يخفون خلفها وقاحتهم... أمّا أنا؟ لا أستطيع أن أهدأ حتى أكسر شيئاً، أو أن يسيل مني اللعاب والدم، حتى يفوق الألم ما يؤلمني في الصميم... كانت الآلام تتصارع داخلي. كنت في الظاهر أتحدث مع الناس، ولكن في قرارة نفسي رأيتني أقلب الطاولة أمامنا وأحطم الأسقف فوقنا وألوح بالسوط وأمزق بنهاية سيوره، الخطوط الكاذبة من كتافتهم الواسعة للغاية. يقفزون مثل الضفدع على الجدران





نظر كل واحد منا من النافذة إلى الظلام الممتد كمدّ الموج عبر السهل.

وتم بعد ذلك سنة ١٧٣٤ إنشاء مستعمرة إسبانية في بانات سمّيت برشلونة الجديدة ضمت من الثلثة التي نجت من الموجودين أصلاً في بانات واللاجئين الذين تدفّقوا في الموجة الجديدة على إسبانيا الفرنسية، وغمروا فيينا بمطالب الإقامة والامتيازات والمعاشات العسكرية. وأذكر أن النصوص التي قرأتها عن هذا الأمر تقول إن العديد من سكان هذه المستعمرة الإسبانية كانوا من المحاربين القدامى المتزوجين من نساء من أصل مجري أو ألماني. وتختلف الأسباب المطروحة لخراب المستعمرة من مؤرخ إلى آخر. فالبعض يعتقد أن المستعمرة انهارت من تلقاء نفسها لأنها كانت مأهولة بالمحاربين القدامى ومقعدي الحرب وكلاهما عاجز عن العمل وأضعف من أن يواجهوا مستنقعات بانات. بينما يقول آخرون، وهذا الرأي الأكثر سداداً عندي، أن الناس قد هلكوا بسبب البعوض والطاعون والحرب والمجاعة. لكن - وقالتها بسخرية - كلهم ينتمون إلى طبقة النبلاء! - وضحكت بمرارة.

رفعت صوتها وقامت بوقفة دراماتيكية انتظرنا خلالها استمرار أفكارها مُكملة حديثها - يعني - هل هؤلاء الأشخاص الذين قابلناهم اليوم، أرسلوا بناء على أوامر شخص ما، مثل الألمان والإسبان في الماضي للاستيلاء على المساحة التي يرغبون في اعتبارها ملكاً لهم؟ لا يمكننا أن نعرف، فلم يدر أولئك حينها أيضاً! اعتقد أسلافي أنهم ذاهبون إلى مدينة فاضلة تسمى برشلونة الجديدة ترمي فيها بذرتين فتحصد أربع نباتات! مدينة يعفون فيها من الضرائب باسم تضحياتهم من أجل إمبراطور النمسا، وليس لأنه يجب عليهم أولاً تجفيف المستنقعات قبل أن يتمكنوا من دفع الضرائب! مكانا يجدون في رحابه مجتمعاً منظماً ومدينة منظمة، كأنها قصة في كتاب نفخت فيها الروح، وليس هذا السجن

لي ما يسكت جوعها أو يرضيها. وحده الأمل كفيلاً بتغييرها، والأمل يزداد حدة. إن عدت يوماً ووجدت عند سفح بانسكو بردو هذا المنزل المثالي ذي الشرفة والبئر والجوز والياسمين والزنبق المرسوم على بلاطه، وثلاثة كلاب سود وهرتين رماديتين، وسيارة قديمة في المرآب لا ينطلق محرّكها إلا دفعا، مع إطلالة على نهر الدانوب، بين صلبان لاتينية ويونانية وألمانية... عسى الوحش الذي في داخلي يخفف حينها من قبضته قليلاً. ثم لعقت حافة الورقة ولفت سيجارة ببراعة.



صارحتنا ريناتا بعد خروجها من المعسكر فقالت - بصراحة، أنا لست مجرّية. لست مجرّية أصيلة على أي حال. لكنني اكتشفت ذلك مؤخراً. إذ أجريت اختبار الحمض النووي لنسبي وتفاجئت حين تبين لي أن أصولي إسبانية بنسبة تزيد عن ٥٠%. ثم تضحك تحت أنفاسها ورمقتنا بنظرة جانبية مرة أخرى. كانت السيارة مظلمة لكنني شعرت بنظرتها الساخرة من كتفه.

— جاء في كتب التاريخ أن أنصار هابسبورغ، ومعظمهم من الكتالونيين، فرّوا إلى النمسا-المجر يوم فقدت النمسا عرش إسبانيا. ثم أرسلوا إلى بانات من فيينا وصقلية وبوليا. ويبدو أنهم كانوا منزعجين قليلاً لأن الحروب النمساوية التركية لم تكن قد وضعت أوزارها بعد، فوجدوا أنفسهم قد هبطوا إلى منطقة كانت تحمل اسم أنتيمورال كريستيانيتاتيس، كما كانت تسمى كرواتيا قبل مائتي عام من وصولهم. لذا منحتهم فيينا جميعاً ألقاب النبلاء إرضاء لهم بغض النظر عن مركزهم السابق في مملكة إسبانيا. وكان لقب النبالة يفيدهم في بانات! - قالتها ساخرة. - ولعل... ولعلّه كذلك! فعندما تكون معدماً... - صمتت للحظة ثم أضافت - ولكن دون جدوى، فكلهم ماتوا.



— بحثت في شجرة عائلتي عن هذا الجدّ الإسباني الذي أنحدر منه، ولكن كل عماتي وجداتي لا يتذكرن إلا المجريين. لا شك أن ربّة عائلتي كانت إحدى هؤلاء النساء اللاتي تزوجن من المستعمرين الإسبان للحصول على معاشات تقاعدية ومزايا ضريبية. وذاك سعي ذهب هباء - وسخرت. - حتى في ذلك الوقت لم نتمكن من البقاء على قيد الحياة في بانات. ولكنني رغم هذا وجدت أثرًا، فإسمي بالإسبانية يعني «لاجئ».

الذي تم إرسالهم إليه لأن فيينا وبست بدأتا تختنقان تحت وطأة اللاجئين. إنّما أرسلوا إلى بانات كما يرسل المحكوم إلى حبل المشنقة، شأنهم في ذلك شأن «حتالة الامارات الألمانية» من قبلهم. وهم بدورهم لم يعلموا أيضًا، ولم يعلم أحد لفترة طويلة لاحقة.

لزمت الصمت وشفتها مضمومتان وغضت البصر وكأنها تسامح الجميع على كل شيء مقدّمًا، واعية بأنه طالما أننا نقيس الوقت بفترات السلطة، فإن كلّ ذي حاجة معذور ولا لوم عليه.

ثمّ واصلت بعد برهة بقينا خلالها صامتين -أخيرًا إن كنت مهتمًا بالصدفة... فلم تكذ تنقضي أربع سنوات على إنشاء مستعمرة برشلونة الجديدة، حتى بدأ المستعمرون في العودة إلى فيينا وبست فرارا من الحرب والمجاعة والطاعون. يذكر أنه في وقت تتويج ماريا تيريزا لم يكن هناك سوى ٦٤ إسبانيًا فقط في منطقة بانات كلّها.

كان الظلام قد سبق وحلّ عند عبورنا الحدود الكرواتية الصربية.





DECONFINING Arts, Culture, and Policies in Europe and Africa

DECONFINING is a large-scale collaborative project that aims to create improved and fairer cultural ties between Europe and Africa by developing a sustainable reference model of cooperation.

Building on the close collaboration between the two continents and the integration of their Capitals of Culture programmes, this project brings together cultural practitioners, policymakers, performing, media/visual artists, in-field universities, and audiences from both continents to explore and demonstrate new ways of intercontinental artistic and cultural (policy) cooperation, and to contribute to a better understanding of confinement patterns from different points of view from an intercontinental perspective.



Co-funded by
the European Union

DECONFINING Arts, Culture, and Policies in Europe and Africa